نظريــة المسرح التراثــي عند المبدع التونسي عز الدين المدني

الدكتور جميل حمداوي

توطئــة:

يعتبر عز الدين المدني من أهم المبدعين التونسيين الذين مالوا إلى التجريب والحداثة والإبداع والابتكار في مجال المسرح، فقد قدم تصورا مسرحيا نظريا يعتمد على مسرحة التراث، وقراءته من جديد نقدا وحوارا وكتابة من أجل إعادة بنائه من جديد، وذلك لفهم الحاضر وقراءته قراءة تاريخية معاصرة قائمة على التغيير والتثوير والنقد العميق. ولاشك أن عز الدين المدني يقترب في تعامله مع التراث من النظريات الاحتفالية العربية التي أعطت اهتماما كبيرا للاحتفال الذي يجمع بين المتكلم والمتلقي. ومن المعروف أيضا أن عز الدين المدني أعطى الكثير والكثير للمسرح التونسي تأليفا وإخراجا وتنظيرا، فرفع من شأنه وشأوه لكي يتبوأ المكانة التي يستحقها بين المسارح العربية الأخرى. إذاً، ماهو التصور النظري الذي يتبناه عز الدين المدني؟ وكيف تعامل مع التراث؟ وماهي مرجعياته الفكرية والمعرفية في ذلك؟ وماهي الآليات التي استعملها أثناء محاورة التراث ونقده؟

1- التصــور النظـــري:

يعد عز الدين المدني من أهم المنظرين العرب الذين انشغلوا بقضية التنظير المسرحي، والاهتمام بهوية المسرح تأسيسا وتجريبا وتأصيلا، وذلك للبحث عن قالب مسرحي عربي. وقد انطلق المدني من ملاحظة هامة تتمثل في أن كثيرا من الدراميين العرب قد استوحوا من الغرب الفن المسرحي، وأخذوا منه التقنيات والفنيات بشكل ساذج ومستلب. بيد أن هناك من الباحثين من حاول أن يقدم مجموعة من التصورات المسرحية الداعية إلى التأصيل، ولكن بدون فهم حقيقي للواقع العربي، وبدون قراءة متمعنة وعميقة للتراث، فسقطوا في النظرة الفنية السياحية والفلكلورية والإثنوغرافيا المجانية والسطحية:" إنه كان خليقا بالعرب المعاصرين ، لما تبنوا الفن المسرحي الغربي، وأعطوه الصدارة في آدابهم وفنونهم، ألا يتبنوا منه إلا النوع فقط، وأن يتركوا جانبا الفنيات ، والأشكال، والاتجاهات التي رافقت النوع، والتصقت به، وكادت تمتزج بأصوله...وإنه كان ضروريا بالنسبة إليهم أن ينظروا في جوهر المسرح، وأن يمعنوا النظر في أدواته، وأن يتأملوا في اتجاهاته. ولئن شرع البعض منهم- في السنوات الأخيرة الماضية- في تغيير ملامح المسرح في العالم العربي ، بإدخال فنية المداح والحلقة ، أو باستعمال فنية الكراكوز، أو بتحوير التركيب الدرامي شيئا ما، على نمط المقامات مثلا،فإنهم مازالوا لم يتعمقوا التعمق الكافي في المجتمع العربي: كالمجتمع التونسي أو المجتمع الجزائري، الذي هو ليس إلا تضاريس لحضارة ألفية لها خصائصها ، ومميزاتها، وأصباغها، ونظرتها، وباختصار علاماتها الحضارية التي لا تزال في أشد الحاجة القصوى إلى سبر مجهولها ، وموؤودها، واقتفاء آثار ثوريتها، ومتابعة منعرجات صعودها وهبوطها.

وإنه لا يكفي بالنسبة إلى رجل المسرح – سواء كان مؤلفا أو مخرجا- أن يستعمل المداح مثلا في عمله المسرحي حتى يكون عمله هذا عربي المشاغل والإطار، تونسي الواقع والآمال، شعبي المشاكل والمطامح، طلائعي النزعة والشكل والإخراج، فلأن المداح أو الكاركوز أو إسماعيل باشا ليس إلا ظاهرة فولكلورية ذات أصباغ زاهية يرتاح إليها الصبي، وينتعش بها الشيخ، وتزهو في عين الزائر، كفولكلورية الأماكن السياحية..لم تأخذ من العلامات الحضارية إلا بعض القشور.

ونقصد بهذا كله أنه يجب التعمق في التفكير العربي، والتشبع به، والوقوف على خصائصه، والرسوب في أغواره، وتفهم رقائق مداركه..."

وبالتالي، فالمدني ليس من الباحثين والدارسين الذين ينكرون وجود المسرح لدى العرب، بل يثبت بشكل قطعي وحاسم وجود كتابة درامية في التراث العربي الإسلامي كما في كتب التاريخ والمقامات ورسالة الغفران وكتب الآداب والمعارف والفنون:" فعلا لقد كان خليقا بالعرب المعاصرين أن لايتبنوا من الفن المسرحي إلا النوع، لأنهم بتقليدهم الفنيات الغربية، ومجاراتهم الأشكال الفرنسية مثلا، قد جعلوا من الفن المسرحي فنا مقصورا على الحضارة الأوروبية، في حين أن الشرق القديم قد عرفه حق المعرفة بتقنيات، وأشكال أخرى لا تماثل تقنيات المسرح الغربي وأشكاله."

زد على ذلك، فعز الدين المدني يشير إلى أن المسرحيين المحدثين والمعاصرين انساقوا وراء المسرح الغربي، ولم يهتموا بعنصرين ضروريين ومتكاملين، وهما: التراث والنزعة الشعبية ذات الطابع الواقعي. وفي هذا السياق يقول المدني :" ابتعد رجال المسرح العرب شططا عن اهتمامات الشعب، وعن شواغل الإنسان التونسي مثلا، وعن قضايا المجتمع في بلادهم لأنهم لم يقيموا أي اعتبار للتراث الذي يحتفظ به الشعب في صدره، والذي يصونه الإنسان العربي في حافظته.فصار المسرح في البلاد العربية- إلا ماقل وندر منه- إما ضربا من التلهية وإما عنوان المفارقة على الرغم من أن هذا المسرح مكتوب بالعربية..."

هذا، وقد سعى المدني جادا في البداية للتوفيق بين الكتابة النصية التراثية العربية والقالب الغربي. وقد دفعه تفكيره في قضايا المسرح شكلا ومضمونا إلى طرح تصور نظري جديد يسمى في منظورنا بالمسرح التراثي ، وهو قريب من التصور الاحتفالي كما عند عبد الكريم برشيد والطيب الصديقي. ويقترن هذا التصور النظري بالتراث اقترانا جدليا، فلا يمكن أن نفصل التراث عن أعمال المدني، فقد كتبت جلها بطريقة تراثية، وتشتغل على آليات ومقومات تراثية: " وإذا كان نص المدني يلتقي مع بعض تقنيات الكتابة المسرحية الغربية، شأنه في ذلك شأن كل نصوص رواد البحث عن قالب مسرحي عربي، فهذا يعود إلى ما أسميناه بالعناصر الثابتة في فن المسرح، كما أن النص، مهما اجتهد فيه صاحبه، لا يعدو أن يكون صيغة مسرحية مقترحة تتبلور على يد المخرج وأثناء العرض المسرحي.

أما في مجال المسرح، فقد قاده هذا الاعتقاد إلى اقتراح مشروع مسرحي عربي يستلهم بعض الأشكال الواردة في الكتابة القديمة، ويجعل المتفرج في علاقة مباشرة مع الأحداث الممسرحة دون اضطراره إلى العودة لمواصفات المسرح في شكله الإيطالي" .

وعلاوة على ذلك، ينظر عز الدين المدني إلى المسرح من خلال رؤية تراثية احتفالية قائمة على الحفل والتجمع والاحتشاد والمشاركة الوجدانية والذهنية والحركية، وذلك لعرض فرجة مسرحية احتفالية ممتعة ومفيدة تثير الجمهور الحاضر. وهذه الرؤية النظرية تقترب كثيرا من رؤية عبد الكريم برشيد ، وتمتح أيضا مقوماتها التطبيقية من الممارسات الميزانسينية للطيب الصديقي ، حيث يقول عز الدين المدني في مقدمة مسرحية" ديوان الزنج":" هذا الديوان المسرحي يريده المؤلف ، والمخرج ، والممثلون، والممثلات والفنيون أن يكون حفلة فنية جماهيرية بما في كلمة حفلة من دلالات شتى:

- في اللغة، وهي التجمع والاحتشاد.

- في النفس وهي الإمتاع الذي يوقظ الحواس.

- في الاجتماع وهي المشاركة بالمشاعر حينا وبالفكر حينا. وربما بالجسم أحيانا.

- في الفكر وهي الجدال والسجال بين القوى المتناقضة، والمتعارضة والتي يعدو بعضها على بعض إلى بلوغ التركيب.

- في الفن المسرحي وهي الخلق الجماعي المتضافر الرفيع الذي يتوجه الانسجام الفني في كل جزئية من جزئياته."

ويتبين لنا بأن عز الدين المدني كاتب ومخرج مسرحي احتفالي يعطي للاحتفال دورا كبيرا في خلق متعة العرض المسرحي، فيركز على ضرورة الجمع بين الملقي والمتلقي في حفلة فنية ينصهر فيها الجميع ضمن مسرح شامل. وفي هذا الإطار يقول الباحث المغربي مصطفى رمضاني:" وبعد استقرائنا لنصوص عز الدين المدني المسرحية، وجدنا أنه يطبق بذكاء دعوته إلى مسرح عربي احتفالي. فقد جمع إلى جانب تلك الخصائص الفنية التراثية، خصائص من المسرح الغربي الشعبي نحو التغريب وشعبية الفرجة المسرحية، والتباعد، والمسرح داخل المسرح، تقنيات شعبية أخرى من المسرح الشرقي."

ويعني هذا أن الاحتفالية عند عز الدين المدني تعتمد على مجموعة من الخاصيات المشتركة مع الاحتفاليين العرب، ومنها الخاصيات التالية: الاحتفال، والمشاركة الجماعية، والشعبية، والواقعية، وتوظيف التراث، وتكسير الجدار الرابع، والاستطراد، والاستخراج، وخاصية التقعير والتمسرح...

2- المرجعيــات النظريــة:

ينبني تصور عز الدين المدني في بناء نظريته المسرحية الجديدة القائمة على مسرحة التراث على مجموعة من الخلفيات المعرفية والفكرية والإيديولوجية، ويمكن أن نحصرها في المرجعيات التالية:

\* الاعتماد على الاحتفالية العربية والمغربية على حد سواء؛

\* تمثل التجربة الإخراجية عند الطيب الصديقي في تعامله مع التراث؛

\* الاستفادة من التراث العربي الإسلامي؛

\* الانفتاح على المسرح الغربي القديم والحديث والمعاصر؛

\* استدعاء النظرية البريخيتية من خلال توظيف خاصية التغريب والتباعد؛

\* استلهام النظرية الميتامسرحية القائمة على التقعير والارتجال والتمسرح وفضح اللعبة المسرحية؛

\*التأثر بالمسرح الشرقي؛

\* الانطلاق من تصورات الإخراج المعاصر كدعوات بيتر بروك ، وكوردون كريك, وأنطونان أرطو، وغيرهم...

هذه هي باختصار أهم الخلفيات النظرية والمرجعية التي اعتمد عليها عز الدين المدني في كتابه مؤلفاته المسرحية ، وإخراج نصوصه الإبداعية.

3- موقــف عزالدين المــدني من التــراث:

نشر الكاتب المسرحي التونسي عز الدين المدني في مجلة الحياة الثقافية بتونس سنة 1978م مقالا نظريا بعنوان" نحو كتابة مسرحية عربية حديثة" مدافعا عن نظرية مسرحية عربية جديدة تقوم على تشغيل التراث بطريقة إبداعية هادفة قوامها التجديد وتحقيق الحداثة الحقيقية. ولا يقتصر هذا التراث على ماهو عربي فقط، بل كان المدني يعود إلى التراث اليوناني لإعادة كتابته من جديد عن طريق التحوير الدراماتورجي والتفاعل الحواري. ومن ثم، يتنوع عنده المقتبس التراثي من تراث أسطوري" مسرحية الفرس" لأسخيلوس، وتراث عربي تاريخي وأدبي ، وتراث عالمي إنساني. وكل ذلك من أجل تأسيس مسرحي عربي وتأصيله كما يصرح بذلك في كثيرا من كتاباته وحواراته وعروضه المسرحية:" لقد كان خليقا بالعرب المعاصرين ألا يتبنوا من الفن المسرحي إلا النوع وحسب، لأنهم بتقليدهم التقنيات الغربية، ومجاراتهم الأشكال الفرنسية مثلا، قد جعلوا من الفن المسرحي فنا مقصورا على الحضارة الأوربية، في حين أن الشرق القديم قد عرف حق المعرفة بتقنيات وأشكال أخرى لا تماثل تقنيات المسرح العربي المعاصر..."

ويعني هذا أن عز المدني قد تنبه إلى ظاهرة لافتة للانتباه ، وهي أن كثيرا من الدراميين العرب الذين يدعون إلى تأسيس المسرح العربي وتأصيله، مازالوا متشبثين بالقالب الأرسطي بناء وتحبيكا وتفضية، ومرتبطين أيما ارتباط بالتقنيات المسرحية والإخراجية الغربية أثناء التوظيف الدرامي والاشتغال الميزانسيني. ومن هنا، فعز الدين المدني يدعو إلى مسرح عربي أصيل مضمونا وقالبا وتقنية، وذلك بالاستفادة من الكتابات العربية التراثية سواء أكانت تاريخية أم أدبية أم صوفية. وهذا ما يثبته الطيب الصديقي أيضا حينما يصرح بأن العرب عرفوا المسرح ، والدليل على ذلك المقامات التي تحمل في طياتها عناصر درامية هامة:" وبما أن هنالك في الشرق والغرب من يقول ليس لدى العرب مسرح في حين أنه كان لدى العرب مسرح دائما، وإن لم يكن لديهم رجالات مسرحيون. والمقامات بالنسبة إلي سواء للهمذاني أو للحريري كلها مسرحيات، أشكال مسرحية مضبوطة مائة بالمائة، وأنا أحاول ما أمكنني داخل هذه الأعمال أن أجد مرة ثانية أشكالا جديدة للمسرح العربي لا ارتباط لها بالأشكال المعروفة في الغرب. أنا مقتنع من حيث الأشكال أن عندنا مسرحا عربيا أصيلا لا يمت بصلة إلى المسارح الأخرى" .

وإضافة إلى ذلك، لا يدعو المدني إلى تقديس التراث وتمجيده، بل يدعو إلى التعامل مع التراث كقيم ومواقف وأفكار وأشكال ، مع نقدها وغربلتها وتبيان زيفها وهرائها، وتمييز الغث من السمين كما فعل في مسرحية" ديوان الزنج" ، وذلك عبر استخدام آلية التحوير والمعاصرة والتثوير والتغيير:" ونحن حينما نعود إلى التراث العربي الإسلامي، وخصوصا إلى فنياته الجمالية، لا نريد بذلك أن نستدل على صحة مفهوم الأصالة المزعوم، وأن نقدس هذا التراث أكثر مما يطيق من التقديس، وأن نجعله بالتالي صالحا لكل زمان ومكان، وإنما نعتبره مجموعة من القيم، والأفكار، والأشكال مازالت في حاجة أكيدة إلى التقصي، لاسيما أنها لم تحظ بالدرس في معظمها، وإنها قد أصيبت بداء التأويل الزائغ، وإنها دفنت بنظرة الإعجاب، والقداسة والتقليد...كما نعد هذه المجموعة من الأشياء جدلية مع حاضرنا ومستقبلنا رغم أن خيط الزمان قد انقطع لأسباب يعرفها العام والخاص مدة قرون طويلة.

ومتى أدركنا هذا الكلام حق الإدراك، فإننا سنمسك حتما عن تقليد ما نجم مكتملا من التراث- سواء كان عروضا شعريا أو صيغا صرفية أو أجهزة فلسفية أو أشكالا معمارية- وسنعمل حتما على تطويرها ، وتعصيرها، وتثويرها حتى يربط من جديد خيط التاريخية بينها وبيننا بصفة حركية متفاعلة دائما."

وهكذا، فعز الدين المدني لايعتمد على آلية المعاصرة من أجل خلق التراث واستدعائه من جديد، بل يستحضر التراث بتقنياته السردية من أجل تأصيل المسرح العربي وتأسيسه. ويعني هذا أنه يجرب التقنيات والوسائل الموظفة في الكتابة التراثية من أجل استعمالها وتشغيلها في نصوصه وعروضه المسرحية. بل يطالب عز الدين المدني أكثر من هذا ، فيطالب الدراميين العرب بأن تكون لهم نصوصهم المسرحية التي تميزهم، كما ينبغي أن تكون لديهم تقنياتهم المسرحية الخاصة بها:" " اهتم عز الدين المدني، وهو يبحث عن كتابة مسرحية حديثة، بالتراث العربي، ليس باعتباره نصوصا قديمة يمكن إحياؤها بتقنيات معاصرة، ولكن باعتبارها نصوصا تحمل معها تقنياتها الخاصة بها. وهذه التقنيات تصبح بدورها مجال بحث وتطوير، ومن خلال هذه العملية يمكن الوصول إلى النص المسرحي العربي دون أن نعتمد اعتمادا كليا على ما نسميه بالتقنية الغربية.وإذا كان للعرب نصوصهم، وتقنيتهم في كتابتها، فماذا يمنع من أن يكون لهم نصهم المسرحي المتميز؟"

ويرى عز الدين المدني في الأخير أنه من الضروري التعامل مع التراث المسرحي على ضوء الرؤية الواقعية الجدلية الشعبية، وأن يكون هناك تواصل حميمي بين التراث المسرحي والجمهور شكلا ومضمونا ولغة وتعبيرا وحوارا:" ورب مسرحية تونسية عربية تتحدث عن بلادنا، وعن شعبنا وعن قضايانا، وعن مطامحنا، لا تقاسمنا خبزنا ولا ملحنا، ولا تراوح أنفاسنا، ولا تتسلل إلى كنه سلوكنا،، ولا تستجيب لرغائبنا، ولا ترقباتنا- البادية منها والملتبسة- لأن المؤلف أو المخرج لم يستطع تطويع الأداة التي بين يديه، ولم يقدر بالتالي على ربط ذلك الخيط الخفي السري الشفاف بين تعبيره الفني والجمهور الذي يتحمل ذلك التراث في صدره، ويصونه في حافظته، ويضطلع بشواغل اليوم المرهقة، ويحلم بالآمال العريضة، ولم يكن في وسعه أن يلائم عمله الفني مع تلك النظرة الشاملة إلى الكون التي اكتسبها الإنسان العربي. فيظل عمله هذا معوجا بين يديه، وكأنه من إنتاج مؤلف أجنبي يكتب باللغة العربية رغم أن حوارها عربي كما قلت آنفا، وديكورها " باب سويقة " ,أشخاصها عرب أسماؤهم: محمد وأحمد وصالح...

فلهذا كله، يتجاوز الفن المسرحي في كثير من الأحيان اللغة، والمضمون..."

وهكذا، نستشف بأن رؤية عز الدين المدني المسرحية رؤية تراثية احتفالية بامتياز تجمع بين التنظير والتأليف والإخراج، وتنطلق من خاصية التأسيس والتأصيل اعتمادا على توظيف تقنيات الكتابة التراثية بشكل متعدد ومتنوع.

4- أنواع التراث في مسرح عز الدين المدني:

يتكئ عز الدين المدني على عدة مصادر متنوعة وثرية في كتابة مسرحياته، وتقديم عروضه الميزانسينية، فهو ينفتح على التراث الإنساني والعالمي، كما ينفتح على التراث اليوناني والغربي ، كما يقترن مسرحه بالخصوص بالتراث العربي الإسلامي توظيفا وتشغيلا ومعالجة وحوارا ومناصا وإعادة كتابته . وهكذا، فلم " تقتصر تجربة المدني على التراث العربي، إذ رأيناه يعود إلى التراث اليوناني، وإلى مسرحية " الفرس" لأسخيلوس، هذه المسرحية التي مهدت السبيل أمام من جاء بعد مؤلفها ليخرج عن قاعدة الكتابة انطلاقا من الأسطورة، ذلك أن" الفرس" تقوم على حدث عاصره المؤلف اليوناني، وشارك في أهم أطواره، غير أن المدني لا يعتبر عمله اقتباسا، مهما كان نوع هذا الاقتباس، وإنما يعده بمثابة إعادة للكتابة، هدفها تقريب هذه المسرحية من حساسية جمهور اليوم وأذواقه وأفهامه، كما أنها وسيلة لإنقاذ الآثار الأدبية والفنية، وإسعافها بالحداثة، وهي فوق كل ذلك منافسة يدخلها المدني ولو كانت مع أول كاتب درامي عرفه تاريخ المسرح" .

ومن هنا، فاطلاع المدني على التراث المسرحي الكوني والإنساني والعربي الإسلامي كان من أجل التجريب والتحديث بغية الوصول إلى محطة التأصيل والتأسيس:" وهكذا،تعامل المدني، وهو يقوم بتحديث الكتابة المسرحية، مع نصوص من التراث التاريخي والأدبي والشعبي دون أي إحساس بمركب النقص تجاه النص أو القالب الغربي، ودون أن يضع مخططا أو تصورا لقالب يريد أن يحققه، فكما كان العرب القدماء يكتبون النص المسرحي القديم، فإنه بدوره يكتب النص المسرحي الحديث، ذلك أن النص المسرحي، وكل نص هو شبكات، هو أجهزة، هو أنظمة، هو هياكل، هو قنوات، أو هو كل ما تريد من هذه المعاني، لكن مادته من ذاته، وعليه أن يكون ملائما لعصره" .

ويعني هذا أن المدني استفاد الكثير من المسرح الغربي، واستوعبه جيدا بدون أن يسقط في دوامة الانبهار والتقليد والاجترار:" ويمكن القول أيضا : إن عز الدين المدني وسعد الله ونوس وروجي عساف " تأثروا بمنجزات الآخر لكنهم رفضوا الاستلاب".

وعلى مستوى التعامل مع التراث العربي ، فقد وظف المدني مجموعة من المصادر السردية والأدبية والمعرفية والفنية كالحلقة والمداح والحكي والسرد والتاريخ والشعر وألف ليلة وليلة وأدب المقامات والراوي والسامر. وقد تعامل كذلك مع مجموعة من النصوص الشعرية والنثرية: النص الصوفي والنص التاريخي، والنص الرحلي، والميتامسرح، والنص الأدبي، وأدب الرسائل، والتراث العروضي...وفي هذا الصدد يرى عبد الكريم برشيد أن عز الدين المدني من أكثر الكتاب التونسيين تعاملا مع التراث بمفهومه الإيجابي التأسيسي والتأصيلي:" وفي المسرح التونسي لم يكتف عز الدين المدني بعملية الـتأليف المشترك بين المؤلف والمخرج، أو باستخدام المداح، أو مسرح الحلقة، أو التركيب الدرامي على نمط المقامات بحيث يصبح العرض مزيجا من فن التمثيل وفن الرواية، بل استغل تقاليد المسرح الأخرى من فنون الأراجوز والمقلد والبهلوان والمهرج والفواصل التمثيلية الشعبية.

في كل هذه المحاولات نجد العودة إلى الشخصيات والمواقف التي تميز الفنون الشعبية في عروض البهلوانات والأراجوزات والمقلدين والحكواتية، كما نجد العودة إلى منابع التراث في القصص الشعبي والمقامات وألف ليلة وليلة، وإلى شكل السامر الشعبي الذي يتحقق إما في مسرح حلقة مفتوح أو حتى داخل المسرح التقليدي."

وقد تعامل عز الدين المدني مع مجموعة من الكتابات التاريخية التراثية من خلال رؤية تاريخية نقدية معاصرة، مع الحفاظ على تقنياتها الفنية والجمالية:" وإذا كانت هذه الأعمال تستلهم التاريخ القديم، فإنها تضع المتفرج في مواجهة مع هذا التاريخ الذي تأخذ معالجته طابعا علميا يرمي إلى ربط الماضي بالحاضر من أجل تأسيس رؤية مستقبلية.لذلك، نرى المدني قد عبر من قبل عن هذا الاتجاه الحداثي في كتابه" الأدب التجريبي" الذي ينطوي على آراء ومفاهيم بناءة ترمي في معظمها إلى تطوير عملية الكتابة الأدبية والفنية عن طريق الاستفادة لا من الأجانب فحسب، بل ومن الخصائص الجمالية الكامنة في كتب العرب القدامى، وكذا عن طريق إحياء تقنيات السرد والحوار العربيين، وإنقاذ ماهو صالح في التراث، والتسلح بوعي تاريخي يراعي أسس العصرنة والتطور الحضاري"

وهذه الرؤية المعاصرة في التعامل مع التراث، وربط الماضي بالحاضر عن طريق قراءة الموروث قراءة متأنية عميقة، يركز عليها الدكتور علي الراعي قائلا:" إن ما يفعله المدني في مسرحياته:" ثورة صاحب الحمار"(1971)، و" رحلة الحلاج"(1973)، و" ديوان الزنج" (1974)، و" الغفران"(1976)، و" مولاي السلطان الحسن الحفضي"(1977) هو في أساسه ما يفعله كل كاتب مسرحي ذكي الفؤاد، صافي البصيرة حين ينظر إلى التاريخ نظرة عميقة، فينفي منه الأجزاء الميتة، ويستبقي الأجزاء الحية، وينظر إلى هذه نظرة عصية، يربط الماضي بمعاناة الحاضر عن طريق تأكيد نقاط الالتقاء المشتركة".

5- آليــات التعامــل مع التــراث:

وظف عز الدين المدني مجموعة من الآليات المسرحية في تعامله مع التراث كآلية المفارقة التي تكمن في استخدام عناوين غريبة ومتناقضة في مجال المسرح كالجمع بين الشعر والتاريخ في مسرحية:" ديوان الزنج"، والجمع بين الرحلة والمسرح كما في مسرحية :" رحلة مسرحية"، والجمع بين الرسالة والمسرحية في نصه الدرامي :" رسالة مسرحية"، والجمع بين المسرح والعروض كما في مسرحية:" على البحر الوافر". وهذه الطريقة معروفة في كتب التراث التي كانت تتعدد فيها الموضوعات، وتتنوع فيها الرسائل والفصول والأبواب. ومن هنا، فالمدني يشغل عناوين تراثية مفارقة ومثيرة ومحيرة تربك أفق انتظار القارئ.

هذا، ويوظف المدني آلية الاستطراد. وتقوم على تناول مجموعة من المواضيع داخل مسرحية واحدة، بحيث ينتقل الكاتب من موضوع محوري بارز ، لينتقل بعد ذلك إلى محاور أخرى مكملة ومعضدة دراميا، كما كان يفعل الجاحظ في كتاباته كالحيوان والبيان والتبيين مثلا، حيث كان ينتقل من الشعر إلى النثر، ومن الجد إلى الهزل، ضاربا الأمثال، ذاكرا العبر، جامعا بين الكلام والأغراض والملح والطرائف... والمقصود من الاستطراد عند المدني هو استخدام أركاح متعددة لإخراج المسرحية، مع الحفاظ على الاندماج الموجود بين المتكلم والمتلقي قدر الإمكان.

ومن المعلوم أن المدني قد سبق أن وظف هذه التقنية السردية التراثية في مسرحية" الحمال والبنات"، بيد أن تقنية الاستطراد تعد عيبا فاحشا في النثر العربي القديم وبلاغته؛ وذلك بسبب التداخل في الأغراض، والتراكب في الأحاديث ، وإلقاء الكلام على عواهنه، وتكديسه على بعضه البعض .

لكن المدني حول الاستطراد إلى آلية درامية إيجابية لجذب المتفرج فنيا وجماليا، وإثارته ذهنيا ووجدانيا وحركيا. وفي هذا الصدد يقول عز الدين المدني:" لقد سبق للمؤلف أن استعمل في أثر أدبي عنوانه: " الجمال والبنات" بعض الخصائص الجمالية التي وردت في الكتب الأدبية العربية القديمة، كـ" الأغاني " لأبي الفرج الأصفهاني، و" الإمتاع والمؤانسة" لأبي حيان التوحيدي، و"كليلة ودمنة" لابن المقفع، و" التوابع والزوابع " لابن شهيد الأندلسي... وهو يعيد استعمال هذه الخصائص بأكثر دقة في هذا الديوان المسرحي. "

و كان المدني يحب كثيرا خاصية الاستطراد كما في كتاب " العقد الفريد" لابن عبد ربه؛ لأن صاحبه:" استطاع أن ينتقل بكل يسر من الأدب إلى السياسة، ومن السياسة إلى الفقه، ومن الفقه إلى الطعام، ومن الطعام إلى الحيوان، ومن الحيوان إلى النوادر، ومن النوادر إلى أجناس البشر، ومن أجناس البشر إلى المصوغ، ومن المصوغ إلى النبات، ومن النبات إلى المعمار، ومن المعمار إلى الكلام، ومن الكلام إلى التاريخ، ومن التاريخ إلى الرحلات...ثم يقال تشويش، ثم يقال فوضى، ثم يقال خلط!!!"

هذا، وإن تقنية الاستطراد آلية مسرحية جديدة ومبتكرة من قبل عز الدين المدني من أجل تأصيل المسرح العربي شكلا ودلالة ووظيفة، ويعرفها بقوله: " والاستطراد عندي هو ذاك في خطوطه العريضة ، وفي مستوياته التي ذكرتها والتي لم أذكرها، حيث تكون كل جزئية ترتبط بسائر الجزئيات المكونة له، وتتفاعل معها، بلا اعتباط، ولا عفو، ولا خلط، وإنما عمدا وقصدا، من أجل استحواذ على الواقع المتشعب من معظم أوجهه.

لذلك اقترحت في بداية هذا البيان أن تكون أركاح هذا الديوان المسرحي متعددة، ومختلفة المستويات حتى تلائم ما جاء فيه من عمل درامي."

وقد مكنه الاستطراد من:" تركيب العمل الدرامي تركيبا مرنا، حركيا، متفاعلا جدا، بل جدليا، وأعانه في الانصراف أو يكاد عن فنيات المسرح الغربي- الكلاسيكي منه والحديث الطلائعي- ودفعه بفضل ذلك كله إلى الاقتراب أكثر فأكثر من الأرضية الذهنية، إن لم يقم عليها عمدا، لاسيما في الماضي الحضاري، وبالتالي، في الواقع الشعبي الحالي، ليكون في نهاية المطاف الضمير النابض للمستقبل، كما ينصهر فيها جميعا، ويتزوج منها، وينطق بأسمائها."

هذا، وقد استخدم المدني آلية أخرى في التعامل مع التراث وهي آلية الاستخراج، وهذه الآلية بمثابة نوع من الاستطراد، كانت موجودة بكثرة في كتب التراث العربي، والمقصود منها أن الراوي يقص الحادثة في خطوطها العامة، ثم يعود ليتحدث عن نقطة جاءت غامضة بغية توضيحها وتفسيرها وإضاءتها أو التعليق عليها. ومن الأمثلة على ذلك من مسرح الزنج:

" المؤلف: صالح بن وصيف!...

صالح بن وصيف: من؟ من يدعوني باسمي ولا يكنيني؟

المؤلف: أنا مؤلف الديوان؟...كم تملك من الضيعات؟

صالح بن وصيف: ألف ضيعة! ...أقطعنيها مولاي الخليفة!!!

المؤلف: وأنت ياجعفر؟...هل فكرت يوما أن للحقيقة وجوها متعددة! وربما متناقضة؟!

أبو جعفر بن جرير الطبري: الحقيقة واحدة: إسلامية، سنية، عباسية. رسمية!

المؤلف: أبا المحامد وأنت؟

يعقوب الصيمري: إن لي مصالح في البصرة قد هدرت بددا. وإن لي ألف قنطار من الحنطة، وألف قنطار من القطن، وألف قنطار من الأثاث والرياش. قد احترقت كلها في حريق البصرة.إني فقير!...

المؤلف: يحيى بن خالد!

يحيى بن خالد: لا تفضحني!

المؤلف: ياشعرور البلاط! ويا ضارب الطبل والزكرة! أنت القائل:

لله درك من سليل خلائف ماضي العزيمة طاهـــر السربال

أفنيت جميـــع المارقين فأصبحوا متلددين قد أيقنوا بـزوال

لقد عرفكم الجمهور على حقيقتكم، فكسروا طبولكم وزكرتكم!

يحيى بن خالد: أبا جعفر العسقلاني القاضي بديوان المظالم، تقضي ولا تحكم ، وتنظر ولا تحسم!

العسقلاني: أتولى الإفتاء والإشارة على مولانا الخليفة المعتمد على الله...

المؤلف: عملك في الظاهر بريء، وفي الباطن مغشوش!"

وهكذا، يتدخل المؤلف أو الراوي باستعراض الشخصيات التاريخية، ومحاكمتها على مواقفها وأفكارها وقيمها، وذلك عن طريق نقدها وتسفيه تصرفاتها، وفضح ممتلكاتها، والتنديد بمهادنتها للسلطان.

ومن الآليات الأخرى التي شغلها المدني في تعامله مع التراث ، والتنظير له ، وتعريف النص المسرحي ، نذكر آلية التشذير. والمقصود بها توظيف الكتابة الشذرية في شكل فقرات قصيرة جدا تتسم بالتقطيع والتنصيص كما في مقاله المعنون بـ:" نحو كتابة مسرحية عربية حديثة" . كما استعان المدني بآليات أخرى في التعامل مع التراث كآلية المعارضة والتشطير والتخميس قصد إغناء المسرح العربي تأسيسا وتأصيلا. لذا، فقد وظفها المدني في مسرحيته:" التربيع والتدوير"، وذلك لمعارضة رسالة الجاحظ، والمسماة بـنفس العنوان:" التربيع والتدوير ".

4- الإنتــاج المســرحي:

من المعروف أن عز الدين المدني له مجموعة من الأعمال والعروض المسرحية التي تعبر عن توجهه النظري الذي يتمثل في المسرح التراثي. ولقد بدأ المدني في كتابة نصوصه المسرحية منذ السبعينيات من القرن الماضي. وقد ألف سبع مسرحيات نشر منها ست، وعرض ست مسرحيات من 1970إلى 1978م.

ومن أهم أعماله المسرحية الدالة على المنحى التراثي ، نذكر: " ثورة صاحب الحمار" ، و" ديوان الزنج"، و" الحلاج"، و" رحلة مسرحية"، و" مولاي السلطان الحفصي"، و" الغفران"، و" رسالة مسرحية"، و" تعازي الفواظم أو تعازي فاطمية" و" رسالة التربيع والتدوير"، و" على البحر الوافر" ...

خاتمـــــة:

وخلاصة القول: يعد عز الدين المدني كاتبا جريئا في تصوراته النظرية، وباحثا مبدعا يبحث عن الجديد الجيد والمستحدث الخارق، ويعتبر كذلك مؤسسا فعليا للحداثة الدرامية العربية المعاصرة عن طريق إعادة قراءة التراث من خلال منظور جديد، وتكوين ورشة مسرحية قوامها المغايرة والتجديد والانزياح والتثوير:" يقوم مسرح عز الدين المدني على البحث والتجريب والإبداع والابتكار والبحث عن قالب مسرحي جديد وكتابة مغايرة قائمة على المعاصرة والتأصيل. بيد أن هناك من ذهب إلى ما حققه المدني لم يتجاوز مستوى التطلعات".

ويكفي عز الدين المدني فخرا أنه فكر في تأصيل المسرح العربي وتأسيسه ، وذلك من خلال تشغيل الفنيات والطرائق البلاغية والسردية والحكائية والأدبية والتاريخية الموجودة في التراث العربي القديم. ويعني هذا أنه حاول أن يؤسس مسرحا عربيا روحا وهوية وقالبا، وأن يخلقه إبداعا و شكلا ومضمونا ووظيفة ورؤية.